مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 09/ العدد: 02- أفريل (2023) - ص 108- 120

تمثلات قيم الرمز والهوية في السرد الفلسطيني رواية "رجال في الشمس" لغسان كنفاني نموذجا

The values of symbol and identity in the Palestinian narrative represent the novel "men in the sun" by Ghassan Kanafani as a model

خالدي سمير[1]
khaldis@hotmail.fr
جامعة غليزان / الجزائر

خميس رضا [2]
hakimreda34@gmail.com
CRASC وهران/ الجزائر

تاريخ الاستلام: 2023/01/07 تاريخ القبول: 2023/02/22 تاريخ النشر: 2023/04/05

ملخص البحث

يعتبر الروائي غسان كنفاني من الأصوات النضالية التي عبرت بالقلم والدم عن مأساة الشعب الفلسطيني مثبتا حضورا نوعيا في الحركة الثقافية الانسانية، حيث تمثل كتابته السردية هوية ممتدة في رحاب قيم تأصيل الذات وتصوير معاناتها في صراعها الوجودي، مرتبا بذلك العلاقة بين الأنا والآخر في توصيف العلائق والسلوكات وهذا ما لفت انتباهنا في سردية "رجال في الشمس" التي تصور في جمالية بكائية مأساة هوية الشعب الفلسطيني، مستمدة المشهد العام من تجارب واقعية معيشة تركت وشما في مخيلة النضال الإنساني العربي والعالمي.

الكلمات المفتاحية: :فلسطين، الرمز، الهوية، الهجرة، المأساة.

ABSTRACT:

Résumé en anglais : Le romancier Ghassan Kanafani est considéré comme l'une des voix militantes qui ont exprimé avec la plume et le sang la tragédie du peuple palestinien, prouvant une présence qualitative dans le mouvement culturel humain. Des relations et des comportements. C'est ce qui a retenu notre attention dans le récit de « Men in the Sun », qui dépeint dans une esthétique larmoyante la tragédie de l'identité du peuple palestinien, dessinant la scène générale à partir d'expériences de vie réalistes qui ont laissé un tatouage dans l'imaginaire de la lutte humaine arabe et mondiale.

Keywords: Palestine, symbol, identity, immigration, tragedy.

[1] المؤلف المرسل : خالدي سمير

1.مقدمة:

عرف الإنتاج السردي الفلسطيني وفرة معتبرة بعد نكبة 1948 إذ أقبل العديد من الروائيين على الكتابة[1]، ولا زال الأمر مستمرا، ويمثل العمل السردي في هذا المقام شاهدا على مجرى الأحداث والوقائع التي عرفها الإنسان الفلسطيني سواء داخل وطنه المحتل أوخارجه، ولقد تكيفت هذه السرود مع الحدث ومع وقائع المرجعية التاريخية التي خضعت بدورها للسياق السوسيو-تاريخي الذي يربط العلاقة بين الوعي والتشكيل الروائي ضمن التخييل بهدف توليد المعنى والدلالة.ف "رؤية الأديب هي التي تتحكّم في اختيار موضوعه، كما تتحكّم أيضًا في اختياره جزئيّات هذا الموضوع، ما يؤثّر بدوره على بناء العمل الأدبي[2]".

إن المنجز الروائي الفلسطيني الحديث -على أساس أن **الرواية هي الجنس الأدبي الأكثر تعبيرا عن التنوع الاجتماعي، والأكثر قدرة على تشخيص ما يقع فيه من أحداث**[3] - يعد بيئة خصبة للإبداع في استخدام الرموز والإيحاءات المختلفة المعبرة عن الهوية الوطنية في تجلياتها المتعددة، وهذا ما لاحظناه في تواصلنا مع سرود الأزمة المستمدة من تجارب واقعية معيشة تركت وشما في مخيلة النضال الإنساني العربي والعالمي.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك رواية: "رجال في الشمس" لـ غسان كنفاني[4] التي تعد من السرود المهمة التي أظهرت سؤال الهوية التي تحكي بلغة تراجيدية تقود نحوإحساس مقلق واقع بلد من خلال عمق الجرح الذي أصاب أبناءه، وكما هومعلوم فإن الهوية انتماء مشترك، يعالج مفاهيم الاختلاف والتنوع والمساءلة والانتماء المتبادل بين الإنسان والكينونة، وقد سعى كنفاني عبر تشذر السرد إلى توظيف رموز اجتماعية تعايشت داخل النسيج السردي لتنقل للمتلقي مختلف التأثيرات الثقافية والحضارية والسلوكية الأكثر تنوعا، والتي تتآزر فيما بينها لصياغة دلالات الهوية الفلسطينية.

لقد شكلت هذه الرموز مفاهيم إشكالية تحركت في ذاكرة الحدث لتقرأ التاريخ ضمن الأسرار الأكثر حساسية في ذاكرة الأفراد الذاتية، واستقصاؤها مثل الرغبة في نقل الواقع المأساوي كما هوفي حقيقته التي تستنطق الماضي والحاضر والمستقبل معا، وتطرح في الآن ذاته تساؤلاتها عبر التخييل الإيحائي الذي يبرز التجاذبات المرتبطة بالهوية كوسيلة تضع المتلقي في حالة تفكير وتأمل لفهم المقاصد من ورائها، ومن هذه الرموز نجد:

- رمز العنوان أوعتبة النص السردي.
- رمز الأشخاص أبطال السرد.
- رمز الأمكنة.
- رمز نهاية السرد.

ومن هنا كان استخدام هذه الرموز منطلقا وهدفا تعكسه تمظهراتها وأبعادها، حيث ألبسها كنفاني سياقات اجتماعية اختصرت هوية شعب في مأساة ذنبه الوحيد فيها أنه فلسطيني احتلوا أرضه بالقوة وفرضوا عليه التهجير القهري بحثا عن حياة أفضل. ومن هنا تبرز الرواية في كونها سردا لشهادة فلسطينية لمرحلة التهجير واللجوء والتأسيس للمقاومة. وهذا ما سنحاول الإجابة عنه .

2. رمزوهوية العنوان أوعتبة النص السردي :

تحتل العتبة النصية(العنوان)، مكانة ذات أهمية في حقل السيميوطيقا والدراسات السردية للكشف عن جوهره الجمالي في الخطاب الأدبي وغيره من الخطابات الأخرى على غرار السينما المسرح، الاشهار ويعد:" من العناصر المجاورة والمحيطة بالنص الرئيس إلى جانب الحواشي والهوامش والمقدمات والمقتبسات والأدلة الأيقونية[5]"، ونظرا لأهميته دعا (ليوهوك Leo Hoc):" إلى أن يحض العنوان بالأولوية من كل العناصر الأخرى المكونة للنص فهوعنصر تسلطي يمنهج القراءة"[6].

اختار غسان كنفاني عنوانا مميزا لروايته "رجال في الشمس"، وهوعنوان ثلاثي البنية على الرغم من قصره الذي يحيل على أشخاص ثلاثة يموتون بفعل محور ثلاثي الأبعاد أيضا يمثله وهج الشمس المتواطئ مع فعل البشر المباشر(أبوالخيزران) وغير المباشر(رجال مخفر الجمارك)، وفي ذلك دلالة عميقة تمثل نسقا علاماتيا :" يمارس على القارئ سلطة أدبية وفكرية ... يشار به ويدل به وعليه، ويحمل وسم كتابته."[7] فكيف يمكن لنا تصور حالة ومشهد رجال في الشمس، ولماذا "في الشمس" وليس تحت الشمس، ونحسب أن الدلالة العميقة لحرف (في) الدال على عمق المكان في (الشمس) هومدار سيميائية العتبة، فخطر الموت المثير يبدأ من العتبة ليتوج بداية النهاية لدراما المشهد المختصر، وما يتخلله من تصوير هوظل وتداعيات للأحداث.

وتحمل الشمس بذلك رمز الخطر والموت المسلط على هؤلاء الرجال من أعلى إلى أعمق، وكأنه القدر الذي لا مفر منه، مع أنه كان من الممكن أن تحمل هذه الشمس الدفء والضياء لهؤلاء، لكن للأسف فهي تسلط نارها بلا رحمة لتغذي حتمية الضيق والهروب من الواقع الذي يحيط بهم في الأسفل داخل قعر وظلمة خزان الحياة المختنق بمرارة العيش ومعضلة البحث عن الخلاص، والحلم الذي يحترق في صمت كئيب ولا يبين عن ضياء.

1.2 رمزوهوية الأشخاص أبطال السرد:

اتخذ كنفاني من شخصيات ذات فئات عمرية مختلفة العنصر الحيوي الذي يضطلع بمختلف الأفعال التي تترابط وتتكامل في مجرى السرد[8]، حيث: أبوقيس، أسعد، مروان و"أبوالخيزران" رموزا للتعبير عن الهوية الفلسطينية المتشضية الأبعاد والتوجهات بعد نكبة 1948، وتصوير واقعها في لوحة تحكي ما تعانيه من بؤس وشقاء وتطلع إلى خلاص دنيوي يأبى أن يتحقق في واقع متناقض الصور والأساليب.

وبذلك يتعانق البعد الرمزي للمأساة مع بعدها الواقعي في نقل وتوثيق وإيصال المعاناة االقاسية للشعب الفلسطيني[9].

حيث **"تتعدد الشخصية الروائية بتعدد الأهواء والمذاهب والأيديولوجيات والثقافات والحضارات والهواجس والطبائع البشرية التي ليس لتنوعها ولا لاختلافها من حدود[10]"**. إن " أبوقيس، أسعد، مروان، أبوالخيزران" شخصيات تدور حولها أحداث الرواية بتفرعاتها إلى فصول سبعة بمسارات متسلسلة يلاحقها الواقع الدرامي بعمق مأساويته، وبتسميات متعددة: " أبوقيس" من ص 7 إلى ص 20 من الرواية، وأسعد من ص 21 الى ص 33، ومروان من ص 35 الى ص50 – حيث يتحدث كل فصل عن ظروف كل شخصية ودوافعها للهجرة إلى الكويت-، والصفقة من ص 51 الى ص63، والطريق : من ص 65 الى ص85، والشمس والظل: من ص 87 الى ص103، والقبر: من ص 105 الى ص109 .

والشخصيات في العمل السردي أفراد خياليين أوواقعيين تدور حولهم أحداث القصة[11]، وبذلك فإن هؤلاء الثلاثة يمثلون بنية العلاقات القائمة التي تتحدد في ضوئها دلالة السرد[12] في التعبير عن واقع الشعب الفلسطيني بعد النكبة، ويمثلون في الآن ذاته صور المعذبين في الأرض الذين يسعون إلى تحقيق الخلاص بالسفر إلى الكويت بلد النفط العربي الذي سيحققون فيه أحلامهم البسيطة في العيش الكريم هروبا من نكبة الضياع، ومذلة الفاقة وهوان الفقر، وهم كنماذج منهم العجوز(أبوقيس) المقيم في مخيم بالأردن والشاب في العشرين (أسعد) الذي يجسد ملحمة خيبة النضال والعذاب في إيجاد وطن يحقق فيه أحلامه، و(مروان) المراهق في السادس عشر من عمره الذي يضطلع اضطرارا وكرها في البحث عن تحمل المسؤولية في إعالة أسرته بعد تنكر أخيه المغترب زكريا وتوقفه عن تقديم المساعدة لهم. وهكذا لكل واحد منهم شأن يغنيه في البحث عن خلاص له ثمن، وأي ثمن... مقابل المهرب الجشع (أبوالخيزران) الذي يستثمر في معاناة هؤلاء، ويستغل ظروفهم لكسب ما أمكن من دنانير تخفف عنه وطأة العيش، وانتهازيته هذه أملت عليه أن يسجنهم في خزان يلتهب بحرارة قاتلة .

لقد ابتدأ كنفاني روايته بالحديث عن "أبوقيس" ليضمنه حديثا عن علاقة صورة الأرض بشعر الزوجة والمطر[13]، وعن دجلة والفرات[14]، وعن ابنته حسناء التي ماتت بعد شهرين من ولادتها[15]، وعن الأشياء التي حرمها وتوجد في الكويت[16].

ثم تحدث عن "أسعد" ووقوفه أمام صاحب المكتب الذي يتولى تهريب الناس[17]، وتفاوضه عن المبلغ المطلوب لتهريبه الى الكويت[18]، وحديث عن الشمس والعرق وفندق الشط الذي ينزل به، ويدعى فندق الجرذان[19].

وبعدها كان الحديث عن "مروان" الذي لم يتوصل إلى اتفاق مع الرجل الذي يتولى تهريب الناس[20]، حيث اقترح مروان مبلغ 05 دنانير مقابل 15 التي طلبها المهرب[21]،ويقوم مروان بتهديد المهرب بفضح ما يقوم به خارج القانون، ويصفعه الأخير متحديا بكل غطرسة[22]، وبعدها يطل علينا "أبو الخيزران" مواسيا مروان،

وفي الآن ذاته يعرض عليه تهريبه إلى الكويت مقابل 05 دنانير[23] على ان يجد اشخاص له آخرين ينقلهم معه[24].

وتبرز الخلفية التاريخية لمأساة الرجال الثلاثة دون "أبو الخيزران" حين ندرك أن هؤلاء المعذبين ليسوا سوى أشخاص لاجئين ومحاصرين بنكبة 1948، وهم بذلك ممنوعون من السفر القانوني، فهم مأسورون، وللهروب من الأسر لابد أن يدفعوا الثمن غاليا، ومسار رحلتهم ليس سوى وسيلة لتصوير معاناة المسار الأليم في هذه الحياة، والذي تمثل نقطة بدايته والنهاية فاصلا بين عذاب قبر الحياة(الخزان) ومرجعية قبر المماة الذي يمر عبر حتمية البحث عن القمامة للتفطن لوجود هؤلاء. وكأنه من سخرية الأقدار أن نثبت مسار وجودنا من خلال تراجيديا مزبلة الحياة. وهكذا يتساوى الوجود مع اللاوجود وتصبح الحياة لا تساوي جناح بعوظة.

إن ابتعاد هذه الشخصيات الثلاثة عن أرضها (فلسطين) بحثا عن واقع أفضل في مكان غير الوطن الأصل (الكويت)، يشكل صورة بانورامية تستنبط الفلسفة الكامنة خلف التشكيلات السردية[25]، ومن خلال ضمير الغائب الغالب على السرد تنعكس رحلة البحث عن المجهول الذي انتهى بهم جثثا مجهولة الهوية وسط مكان مشمئز، ولا يشرف(موضع القمامة)، وذلك يحمل دلالات رمزية تحيل على الهروب من موت شريف إلى موت مهين على قاعدة فقدان الأرض والتشتت الذي عصف بوحدة الشعب الفلسطيني، ولذلك ارتبط مسار هذه الشخصيات بإدانة الابتعاد عن الأصل ممثلا في فقدان التواصل مع الأرض الأم التي تمثل شريان الحياة، وانعدام التفكير في توحيد جهود النضال ضد المحتل والتخلي عن الواجب الوطني والطبيعي، والاستسلام لقدر عابث لا يرحم. وبذلك يتعادل سعي هذه الشخصيات إلى تحقيق العيش بعيدا عن الوطن في بلد النفط مع التنكر للوطن، وضياع الذات والهوية.

كما يستحيل واقع هذه الشخصيات في مسار ابتعادهم عن الوطن إما صحراء شاسعة لا طعم للحياة فيها، أو ضيقا نفسيا وتنفسيا في غياهب خزان مظلم تتساوى فيه الحياة مع الموت. فهم يهربون من الموت جوعا ويلقونه ضيقا ورعبا.

أما "أبو الخيزران" فهو يعمل عند الرجل الثري الحاج رضا الذي شجعه وزود راتبه[26]،كما أنه سيهرب المجموعة في سيارة هذا الرجل الثري المعروف في المنطقة[27]، وقد كان "أبو الخيزران" سائقا بارعا خدم في الجيش البريطاني 5 سنوات قبل 1948 وانظم الى فرق المجاهدين وكان يعرف عنه انه سائق بارع للشاحنات الكبيرة[28]. وإلى جانب ذلك فهو شخص لا يهمه سوى جمع المال على حساب مآسي الآخرين، وهو في صفقته مع "أسعد" يريد الاتفاق على مبلغ المال الذي سيجنيه من العملية أولا في حين يريد أسعد ومن معه معرفة تفاصيل عملية التهريب[29].

وأثناء الرحلة يقول أبو الخيزران : ان هذه الكيلومترات ال 150 أشبهها بيني وبين نفسي بالصراط التي وعد الله خلقه ان يسيروا عليه قبل ان يجري توزيعهم بين الجنة والنار، ومن اجتازه وصل الجنة، أما الملائمة فهم رجال الحدود"[30]، ويتذكر ابوا لخيزران في طريقه مشهد مرت عليه 10 سنوات حين ضيع

رجولته في سبيل الوطن، وضاعت الرجولة وضاع الوطن[31]، فهو يحس إحساسا كريها بعد خصيه، ويشعر بألم يغوص بين فخذيه كأنه مازال ملقى تحت الضوء الساطع وساقاه مرفوعتان إلى فوق، وذلك كلما سئل سؤالا عابرا : لماذا لم تتزوج[32] ،ويتحدث أبو الخيزران عن قصة ابن عمه حسنين الذي هرب مرة عبر الحدود، وبعد 10 ساعات من المسير حل الظلام عندها أشار المهرب الى مجموعة من الأضواء البعيدة وقال: تلك هي الكويت تصلونها بعد نصف ساعة، ولم تكن تلك الكويت بل قرية عراقية نائية[33].

ويبرر "أبو الخيزران"" قيامه بالتهريب لكسب مزيد ومزيد ومزيد من النقود حتى يستقر بعد عامين ويستريح من تعب الحياة[34]، وينصح مرافقيه بأن ينزعوا قمصانهم داخل الخزان لأن الحر خانق ومخيف و" سوف تعرقون لأنكم في المقلى"[35].

ويتهكم أبو الخيزران أمام الجمركي حين سأله ماذا يحمل فيجيبه: أسلحة ن دبابات ومصفحات، وست طائرات ومدفعين[36].

وبعد المرور على مخفر الجمارك الأول لم يعد أي واحد من الأربعة يرغب في المزيد من الحديث ليس لأن التعب قد أنهكهم فقط بل لأن كل واحد منهم غاص في أفكاره عميقا عميقا نحو قدر جديد مجهول[37].

وبعدها، وأثناء السير فيما كانت الأفكار تسيل من رأس إلى رأس وتخفق بهواجس واحدة التقت العيون، وأطفأ أبوالخيزران المحرك وقرروا الاستراحة قبل بدء التمثيلية القادمة عند مخفر الجمارك القادم وطرح مروان السؤال عن جدوى الدخول الى الخزان مادامت السيارة معصومة من التفتيش[38].

ولكن عند مخفر الجمارك الأخير حين توقف، حدث مالم يكن في الحسبان، تعطل الجميع، وزادت معاناة أهل الخزان، وأخذ الجمارك يسألون "أبو الخيزران" عن قصة الراقصة كوكب، ويلومونه عن ممارسة الشرور في البصرة، وادعائه أن السيارة تعطلت حتى يتسنى له قضاء مزيد من الوقت في ممارسة غرامياته، وأنه كان يمضي لياليه مع هذه الراقصة[39]...وبذلك دفع الرفاق في الخزان ثمنا غاليا وهو حياتهم بسبب مزاح لا يسمن ولا يغني من جوع.

ويستمر مسار المصير المأساوي المتلاحق بعد الموت حين يهبط الليل فيتجه "أبو الخيزران" خارج المدينة النائمة[40]، ويجر الجثث واحدة واحدة من أقدامها ويلقها على رأس الطريق حيث تقف سيارات البلدية عادة لإلقاء قمامتها، وذلك كي تتيسر فرصة رؤيتها لأول سائق قادم في الصباح الباكر، ثم يتنبه إلى أمر فيعود إلى حيث ترك الجثث[41]، فيخرج النقود من جيوبها وينتزع_ ساعة مروان، وحين يصل إلى باب السيارة يحس أن رأسه يكاد ينفجر، وتنزلق الفكرة من رأسه إلى لسانه: لماذا لم يدقوا جدران الخزان، لماذا لم تقولوا، لماذا لم تقرعوا جدران الخزان، لماذا، لماذا، لماذا...وكانت الصحراء تردد الصدى[42].

تلك هي شخصية "أبو الخيزران" المخصي، والجبان ،الذي لم يدرك انسانيته إلا بعد فوات الأوان، وبعد أن يسرق أموال الموتى الذي لم يف لهم بما تعهد به.

ولأن الرواية كإيديولوجيا تعني موقف الكاتب بالتحديد[43] فإن كنفاني يقدم "أبو الخيزران" على أنه رمز لهوية القيادة الفلسطينية الفاشلة التي تسعى لتحقيق مصالحها الشخصية على حساب وطن ضائع، وبالتواطؤ غير مباشر مع أنظمة عربية ثرية تعيش على وقع اللامبالاة بمآسي شعب عربي فقير ومشرد، وبقوانين مصطنعة تشكل حاجزا، وحجر عثرة في التواصل مع الإخوة المشردين. هذه القيادة المتنكرة لأحلام وأماني شعبها، والعاجزة عن الوفاء بالتزاماتها التقت مع واقع عربي مزيف لتصنع المأساة، وهي بذلك تبتعد في ممارساتها عن الوطن أكثر مما تقترب، كما أنها أبعد ما تكون عن ضمير الانسانية.

2.2 رمزوهوية الأمكنة:

يعد المكان أحد العناصر المهمة التي تساهم في احتضان ورسم معالم السرد وفق زمن وحدث معين، ولا يكتمل بناء العمل الفني إلا باحتلال المكان لدور مهم وبارز في تشكيل سيميائية الرؤية المعبر عنها[44] .

وقد ألح (غاستون باشلار) على قيمة المكان في العمل الفني بحيث أن :" فقدان النص للأمكنة يعني فقدان خصوصيته"[45]، لذلك ونحن نتابع تطورات الأحداث في الرواية نكتشف أن الروائي قد وظف الأمكنة بعناية تماشت مع تفرعات الحدث ومضامينه لتكون:" الكاشف للعوالم السيكولوجية للشخصيات."[46] ومن هذه الأمكنة:

الشمس: مكان يعلمه العام والخاص، كوكب متوهج مضيئ، مصدر للطاقة يبعد عن الأرض بملايين الكيلومترات، مجرد الاقتراب منها يؤدي الى الاحتراق ، وقد منحها كنفاني صفة المكان الذي يحوي الرجال في داخله ليس عطفا عليهم بل هو رسم وتجسيد لهول ما يعانيه هؤلاء، وأن درجة المأساة تقاس بحرارة لهيب الشمس القاتلة .

لقد أولى الشاعر اهتماما كبيرا لهذه الشمس التي : " كانت تصب جحيمها بلا هوادة."[47] لا تفرق بين العجوز، الكبير ولا الصغير فهي تفتك بمن يقترب منها. أوهي كما يسميها :" بالشمس الملعونة"[48]

وفي مشهد آخر كأنها كانت تتحرك معهم طيلة سفرهم من نقطة إلى أخرى :" كانت ترتفع فوق رؤوسهم مستديرة متوهجة براقة." [49] تتربص بهم وترصد قرب ساعة الفتك بهم جميعا فيموتوا جميعا اختناقا من شدة الحر وانعدام الهواء في خزان مغلق بإحكام. وبذلك تغدوالشمس المكان الذي رسم لنا لهيب الرحلة وأطرها عبر مسار الزمن (الليل، النهار، بعد الزوال، الغروب...)، إنها رحلة في حريق الشمس .

الصحراء: تمثل الصحراء بطبيعتها مكانا مقفرا ومخيفا، يتيه فيه كل من يفقد معالم الطريق وأبعاده ، فضاء رحب خالي موحش، مليء بالأخطار يشعر فيه الإنسان بالرهبة والضياع، يتميز مناخها بالقساوة وندرة الماء الذي هوأساس الحياة، كما أنها على صلة مباشرة بحرارة الشمس القاتلة . يتنقل عبرها الرجال الثلاثة (أبوقيس، أسعد ومروان) ومعهم رابعهم المهرب، حيث تحيط بهم الصحراء من الجهات الأربع : " الصحراء موجودة في كل مكان"[50]. ولا يستطيعون الفرار منها، إنها فضاء مقدر عليهم المرور به إذا أرادوا الوصول إلى الكويت رمز الخلاص، وقد أبدع (أبا الخيزران) في وصفها حين قال: " إن هذه

الكيلومترات المئة والخمسين أشبهها بيني وبين نفسي بالصراط الذي وعد الله خلقه أن يسيروا عليه قبل أن يجري توزيعهم بين الجنة والنار." [51] فلا مفر إذن من اجتياز هذا الصراط لمن أراد أن يصل إلى أرض الخلاص الكويت:" وراء هذا الشط وراءه فقط توجد كل الأشياء هناك توجد الكويت ..."[52] إنها المكان الجاذب الذي يخاطر من أجله الثلاثة :" لا بد أنها شيئ موجود، من حجر وتراب ودماء وسماء... لا بد أن ثمة أزقة وشوارع ورجال ونساء وصغار يركضون بين الأشجار..."[53] إن الكويت بالنسبة لهم مكان الرزق وهوما يؤكده سعد أن صديقه:" هاجر إلى هناك واشتغل سواقا وعاد بأكياس من النقود."[54] أما مروان يفصح في حديثه مع أبي الخيزران عن سبب هجرته بقوله: " لقد كنت في المدرسة قبل شهرين ولكنني أريد أن أشتغل الآن كي أعيل عائلتي."[55]، ولكي يحققوا ما يصبون إليه يجب عليهم اجتياز الامتحان الصعب المتمثل في الطريق الصحراوي الرابط بين البصرة والكويت لتبدأ رحلة المأساة عبر هذا الطريق الذي قدر ثمن عبوره بخمسة عشر دينارا، محفوف بالمخاطر يرافقهم دليل إلى هناك[56] مستقلي السيارة الكبيرة :" ترسم في الصحراء خطا من الضباب يتعالى ثم يذوب في القيظ."[57] .

لقد أصبغ غسان كنفاني على الصحراء جملة من المواصفات جعلت منها مكانا مرعبا في تجلياته فهي:" هذه جهنم التي سمعت عنها، جهنم الله."[58] وأطرافها صامتة كالموت"[59] هذا المكان الفسيح الرحب الذي احتضن مأساة الرجال الثلاثة وهم يقطعون الصحراء على متن السيارة التي تحمل الخزان، مكانهم الأخير الذي لفضوا فيه أرواحهم اختناقا، لتشهد الصحراء آخر مشهد من مأساة المعاناة وهي تردد صدى أبو الخيزران: " وبدأت الصحراء كلها تردد الصدى لماذا لم تدقوا جدران الخزان ؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟."[60] . سؤال ليس له جواب سوى أن قدر الفلسطيني وهو يموت ليس لديه الحق حتى في الصراخ وطلب النجدة .

لقد بدأت رحلة الرجال في صمت الصحراء وانتهت حياتهم كصمت الصحراء أيضا دون أن يعلم بهم أحد إلا ما ردده الصدى بلا حسيب ولا رقيب.

الخزان:

هو خزان مركب خلف سيارة المهرب(أبو الخيزران) ينقل فيه الماء في الظاهر، لكن في الواقع استعمل وسيلة لتهريب الفلسطينيين الذين ضاقت بهم سبل الحياة والعيش ويريدون الوصول إلى الكويت مرفأ الخلاص .

وتتمتع هذه السيارة التي بها الخزان بجملة من الامتيازات على لسان(أبي الخيزران) فهي: "مرخصة لاجتياز الحدود ...إنها ليست سيارتي صاحب هذه السيارة رجل ثري معروف، لا نقف كثيرا على الحدود ولا تتعرض للتفتيش، فصاحب السيارة معروف ومحترم."[61]

وقد اختار كنفاني الخزان مكانا يرمز به إلى سجن الحياة الضيق والمظلم ليحيله في الأخير إلى زنزانة للموت الصامت، فالرجال الثلاثة ضاقت بهم أرض المخيم ولم تسع همومهم ففروا إلى مكان مصنوع من الفولاذ يغلق بإحكام عميق عمق البئر، والحرارة فيه مرتفعة لأن جدرانه من المعدن تحرق كل من يستند

عليها لدرجة أن مروان أحد المهاجرين يتساءل قائلا: " في مثل هذا الحر من يستطيع أن يجلس في خزان مقفل ؟."[62] ، وكانت خطة عملية التهريب التي رسمها "أبو الخيزران" هي:" تنزلون إلى الخزان قبل نقطة الحدود في صفوان بخمسين مترا، سأقف على الحدود أقل من خمسة دقائق، بعد الحدود بخمسين مترا، ستصعدون إلى فوق وفي المطلاع على حدود الكويت، سنكرر المسرحية لخمس دقائق أخرى، ستجدون أنفسكم في الكويت."[63]، وبعد نزولهم إلى عمق الخزان أصبح لكل واحد منهم رأي، اندهشوا من غرابة المكان فكان هذا الخزان شبيه بالمقلى[64] بسبب حرارته المرتفعة : " هذه هي جهنم إنها تتقد." [65] الحركة فيه ممنوعة، وممنوع أيضا إصدار الصوت بل أكثر من ذلك حتى العطيس عليهم أن يسدوا أنوفهم إذا أراد أحدهم أن يعطس، ويرد سعد بقوله : " لا أعتقد أن أحدا سيعطس في هذا الفرن."[66] ، وكان قدرهم النزول إلى أسفل الخزان : " إنه بئر ملعونة." [67]، وانتظار مرور الوقت بترقب شديد:"كانوا يتصببون عرقا."[68]،وبدؤوا الصعود إلى أعلى الخزان واحدا تلوى الآخر:"حسم مروان رأيه فاقترب متسرعا من السلم الحديدي، إلا أن أسعد سبقه فتسلق العجل ثم انحنى فوق الفوهة المفتوحة وأسقط رأسه داخل الخزان لبرهة وجيزة ثم عاد فرفعه: هذه هي جهنم إنها تتقد."[69] أما أبو القيس:" وصل إلى جنبهما لاهثا[70]".وانطلقت السيارة تشق طريقها في الصحراء لتقترب من النقطة الثانية للتفتيش تحت لهب الشمس، وعندما بدا له أن المسافة أصبحت قريبة من مركز التفتيش أغلق "أبو الخيزران" فوهة الخزان قائلا لهم:" تبقى سبع دقائق على الأكثر وأفتح لكم الباب تذكروا ذلك جيدا." [71]

توجه أبو الخيزران إلى مكتب رئيس مركز المراقبة لتوقيع وختم تصريح بالمرور لكن الموظفين ومدير المكتب أخذوا من وقته ما لم يكن في الحسبان، وطلبوا منه أن يقص عليهم قصته مع إحدى الراقصات وتجاوز الوقت السبع دقائق التي حدثهم عنها، ولما خرج من المكتب توجه إلى سيارته وانطلق بها تحت لهب الشمس ولما فتح فوهة الخزان كانت المفاجأة الكبرى، وجد نفسه أمام مشهد مأساوي:" كانت الجثة الأولى باردة صلبة، ألقى بها فوق كتفه أخرج الرأس أولا من الفوهة ثم رفع الجثة من الساقين وقذفها إلى فوق..."[72]، وهكذا انتهت رحلة الخزان الذي كان سببا في دمار هؤلاء الرجال ودمار أحلامهم.

ونستخلص من ذلك:

- يحمل المكان في الرواية بعدا رمزيا يشير تارة إلى القدر المرعب الذي يرعى مسار الحياة في تواصل مع حريق الحرارة المسلط من فوق(الشمس)، ومن حجم مأساة الشعب الفلسطيني المتداعية والمترامية (الصحراء)، وإلى الضيق الذي يختصر الحياة في موت محقق(الخزان)، وينتهي عند القمامة ليطرح التساؤل عن مأساة انسانية بعيدة الغور..

- كما تشير الصحراء إلى طول الأمل الذي لم يتحقق رغم الشقاء والعذاب ،كما تحيل على عراقيل المهمة التي عزم الثلاثة على خوضها محفوفة بالمخاطر مع ارتفاع درجة الحرارة ونقص الماء وخطر المراقبين في نقاط التفتيش، حيث القانون يساهم في الجريمة بدل أن يصنع الحياة.

يمثل الخزان رمزا لبعد مأساوي يختصر أحوال الشعب الفلسطيني في ظل الحصار المفروض على واقعهم، فقد احتضن المهاجرين الثلاثة إلى الكويت مختصرا مصيرهم وملغيا أحلامهم، ومحيلا على تفاهة الحياة التي يسعون وراءها متخلين عن قضيتهم الجوهرية.

3. رمز نهاية السرد:

لما هلك الرجال الثلاثة في الخزان اختناقا قرر "أبو الخيزران" أن يرميهم على قارعة الطريق أمام المكان الذي تجمع منه القمامة من طرف عمال النظافة: " جر الجثث واحدة واحدة من أقدامها وألقاها على رأس الطريق حيث تقف سيارات البلدية عادة لإلقاء قمامتها كي تتيسر فرصة رؤيتها لأول سائق قادم في الصباح الباكر."[73] ولم ينس أبو الخيزران الدنانير المعدودة التي كانت اتفاقا بينه وبين الشهداء (أبوقيس، أسعد ومروان) :" فأخرج النقود من جيوبهم وانتزع ساعة مروان وعاد أدراجه إلى السيارة ماشيا على حافتي حذائه." [74] وهو يتساءل بصوت عال لماذا لم يصرخوا ؟لماذا ؟لم يدقوا على جدران الخزان لماذا ؟ لم يجبه أحد عن سؤاله سوى صدى الصحراء يردد سؤاله...

وكما جاء في غلاف الرواية: تعبر وقائع السرد عن الصراخ الشرعي المفقود في إطار رمزي لعلاقات متعددة تتمحور حول الموت الفلسطيني انطلاقا من السؤال البديهي: لماذا لم يدقوا جدران الخزان.

4. خاتمة:

وفي الختام يمكن القول أننا توصلنا إلى أن رمزية نهاية السرد تطرح عدة رؤى نجملها فما يلي :

_ صراع الإنساني مع اللاإنساني: بين رمي جثة الإنسان الذي كرمه الله في القمامة والاعتداء على ممتلكاته، وفي الآن ذاته التساؤل عن حقه في الصراخ طلبا للحياة، حيث النتيجة هي ضياع الهوية والحق في التعبيرعن الوجود.

_ سؤال الحياة في السرد يبقى بلا جواب تردده الصحراء ما دام أصحاب الحق الشرعي في الحياة سكتوا عن المأساة التي عاشوها حتى آخررمق في حياتهم.

_ عبر التساؤل المحرج في نهاية السرد عن إدانة حدث الموت في خزان يمثل جدارا مغلقا عن الحقيقة التي يجهلها حاجز القانون، ويعلمها في الآن ذاته المتحايلون على القانون وعلى الوعي بتراجيديا و اقع

فلسطيني معيش يدعوإلى ضرورة التحريض على الثورة على الظلم و إيصال المطالب بحقوق شعب مشرد لتكون صرخة معبرة عن الإنسانية المعذبة في عالم يتغنى بحقوق الانسان.

_ تمثل الرواية رجال في الشمس مشهدا من مشاهد معاناة الشعب الفلسطيني مع الكيان الصهيوني المغتصب لأراضيه تفتح باب الأمل والرجاء والحلم الموعود في تحرير الأرض المستباحة، إنها رؤيا يريدها الروائي أن تبقى حية إلى غاية تحقيق المراد وطرد الأقدام المدنسة لأرض الأنبياء والأديان الطاهرة .

_ تعبر الرواية عن مدى ارتباط المواطن الفلسطيني بهويته وأرضه واحساسه العميق بالانتماء والموت من أجل البقاء على العهد.

5. الهوامش:

[1] – يقال "إن الرواية هي صورة الحياة ".أنظر: محمد عناني، المصطلحات الادبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجان القاهرة 1996، ص 87-88

[2] - عبد المحسن طه بدر، الروائي والأرض، القاهرة: الهيئة المصرية العامة، 1971، ص6.

[3] - أنظر: نور الدين محقق، بنية اللغة وصراع الأصوات في رواية "الإخوة الأعداء"، مجلة فكر ونقد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، العدد 9، مايو1998،، ص 95

[4] - غسان كنفاني، رجال في الشمس، دار منشورات الرمال، قبرص، 2015.

[5] جميل حمداوي، سيميوطيقا العنونة، عالم الفكر، المجلد 25، العدد3، يناير مارس، الكويت 1997م، ص 150.

[6] محمد قارب النجار، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م، ص 15.

[7] محمد مفتاح، دينامية النص، تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء، 2006م ص72.

[8] - أنظر: سعيد يقطين، قال الراوي، البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، دار توبقال، الدار البيضاء، ص 87.

[9] - أنظر: لبنى الغصين، الصراع الفلسطيني الاسرائيلي وتحرير القدس وفلسطين، دار أمل الجديدة للطباعة والنشر والتوزيع،2020.

[10] - عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص73

[11] - حسين القباني، فن كتابة القصة، دار البصير،ص68.

[12]- أنظر: جيرالد برنس، المصطلح السردي (معجم مصطلحات)،دار اقرأ،بيروت،1999،ص 18

[13] - الرواية، رجال في الشمس، ص 8/7.

[14] -نفسه،: ص 9.

[15] - نفسه، ص 13.

[16] - نفسه، ص 17/16.

[17] - نفسه، ص 21.

[18] - نفسه، ص23.

[19] - نفسه، ص 29/25.

[20] - نفسه، ص 35.

[21] - نفسه، ص 36/35.

[22] - نفسه،ص37.

[23] - نفسه، ص 45/44.

[24] - نفسه، ص 45.

[25] - أنظر: كمال اللهيب، تحليل الخطاب الروائي، بناء الشخصية مدخلا، الهيئة المصرية العامة للكتاب.(د-ت).

[26] -الرواية، رجال في الشمس، ص 57.

[27] - نفسه، ص 55/54.

[28] - نفسه، ص 55.

[29] - نفسه، ص 52.

[30] - نفسه، ص 66/65.

[31] - نفسه، ص 68.

[32] - نفسه، ص 69.

[33] - نفسه، ص 70.

[34] - نفسه، ص 73.

[35] - نفسه، ص 74.

[36] - نفسه، ص 79.

[37] - نفسه، ص 87.

[38] - نفسه، ص 91/90.

[39] - نفسه، ص 97.

[40] - نفسه، ص 105.

[41] - نفسه، ص 107.

[42] - نفسه، 109/108.

[43] - حميد لحمداني: النقد الروائي والإيديولوجيا، من سيسيولوجيا الرواية إلى سيسيولوجيا النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990،، ص35

[44] - أنظر: العيد فاتح رؤيا الأمكنة في السرد الروائي دار الأمير عمان، 1998، ص 125.

[45] غاستون بشلار: جمالية المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،ط2، بيروت، لبنان 1984م ص6.

[46] عبد الحفيظ محفوظ وظيفة الوصف في الرواية، منشورات الاختلاف الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، الجزائر، بيروت، 2009م،ص11.

[47] الرواية ص 65.

[48] الرواية ص 71.

[49] الرواية ص 87.

[50] الرواية ص 26.

[51] الرواية ص 65-66.

[52] الرواية ص 15.

[53] الرواية ص 15.

[54] الرواية ص 15

[55] الرواية ص46.

[56] الرواية ص 27.

[57] الرواية ص 84.

[58] الرواية ص 90

[59] الرواية ص 71

[60] الرواية ص 108.

[61] الرواية 55.

[62] الرواية ص 58.

[63] الرواية ص58.

[64] الرواية ص 75

[65] الرواية ص 76.

[66] الرواية ص 76

[67] الرواية ص 76.

[68] الرواية ص 73

[69] الرواية ص 74

[70] الرواية ص 75.

[71] الرواية ص 92.ذ

[72] الرواية ص 93.

[73] الرواية ص 107.

[74] الرواية ص 108.